عصور - تصنيف ج- المجلد 22 / العدد02 - خاص - أوت 2023
EISSN 6278-2600 ISSN 1112- 4237
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/167

معرف الكائن الرقمي للمقال:10.54239/2319-022-999-004 (DOI)

الطبّ في المغرب الأدنى، من خلال كتاب "طبّ الفقراء والمساكين". للطبيب ابن الجزّار القيرواني(ت 369هـ/979م).

Medicine in lower Meghreb through the book" Tib El fokaraa wa El Masakin"(369H/979AD)

أ. د. أم الخير عثماني*
جامعة الجيلالي بونعامة-خميس مليانة-/ الجزائر
o.otmani@univ-dbkm.dz

تاريخ الإرسال: 2023/02/04 تاريخ المراجعة: 2023/02/15 تاريخ القبول:2023/07/02

الملخّص:

ازدهرت العلوم المختلفة في بلاد المغرب الأدنى، خاصّة الطبّ بالقيروان، كما لمع دور المدرسة الطبيّة، وتصدّر مجموعة من الأطباء في المجتمع القيرواني خلال القرنين(3 و4هـ/9 و11م)، وعلى رأسهم الطبيب أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن علي بن أبي خالد؛ المعروف ب"ابن الجزّار"**(ت 369هـ/979م)**، من عائلة طبيّة؛ إذ امتهن والده وعمّه طبّ الكحّالة، فترجم له المؤرّخ ابن أبي أُصيبعة، واشتهر من مؤلّفاته الطبيّة كتاب "طبّ الفقراء والمساكين".

والظاهر أنّ طبّه كان تطويرًا لما تعلّمه من أصول الحِرفة التي أسّسها طبيب مسلم قدِم من بغداد؛ اسمُه "إسحاق بن عمران"سنة(ت224هـ/839م) بناءً على طلب الأمير الأغلبي، ثمّ تفرّغ بعد ذلك لخدمة الأمير زيادة الله الثالث التَميمي(290-296هـ/903-909م)، واشتهر ابن الجزّار في الوقت الذي اشتهر فيه غيره من أطباء المشارقة، وظهرت مؤلّفات عدّة تتحدّث عن أخلاقيات الطبّ وأخلاق الطبيب، وكذلك كُتب الأدويّة المفْرَدَة والمُركّبة، وأهميّة الغذاء قبل الدواء، في وقتٍ كان يعيش فيه المجتمع الإسلامي شِبْه طبقيّةً ظهرت خلالها الفوارق بين العامّة

* أ. د أم الخير عثماني - جامعة خميس مليانة

والخاصّة، فكان كتاب "طبّ الفقراء والمساكين" بمحتوياته طبيبًا لمنْ لا يَحْضُره طبيبٌ من عامّة الناس.

الكلمات المفتاحيّة:ابن الجزّار؛ القيروان؛ زيادة؛ الطبّ؛ الفقراء؛ المساكين؛ عِمران؛ المغرب.

Abstract :

Many different sciences prospered in the lower Maghreb. Especially Medicine in Qayrawan the mediaval capital of Tunisia. As the role of scientific and the technical information school shined, a group of doctors took the lead in the community of Qayrawan during the centuries (3,4H/ 9,11AD) .

The scholar Abu Djaafar Ahmed Iben Ibrahim Ben Ali Ben Abi Khalid headed them, He was known as Ibn Al Djazzar (369H/979AD). He hailed from a family of physicians, His father was a doctor as was his paternal uncle, Many of his works were translated by the Historian Ibn Abi Osaybiaa, His famous book was "Tib El Fokaraa wa Al Masakin" .

It was very clear that his medicine was a development of what he studied with the famous philosopher and physician "Ishak Ben Imrane"(224 H / 839 AD)Based on request of the El Aghlabi prince, After that he spent his time under the service of the prince Ziyadat Allah III El Tamimi (290-296 H / 903-909 AD).

Ibn Al Djazzar was as famous as the Eastern scholars, His books talked about the ethical medicine and the doctor's code of etihics as well his books of simple and complex medicines in addition to the importance of food before medicines, In that time the Islamic community lived in classes, when there were obvious differences between the public and the private.The book "Tib El Fokaraa" wa Al Masakin with all of its content was a doctor for all those who don't have doctors from the puplic.

Keywords: Ibn Al Djazzar; Qayrawan; Ziyadat Allah III; Medicine; El Fokaraa; Imrane; Maghreb.

- مقدّمة:

حظيّ الطبّ بالاهتمام كباقي العلوم في المغرب الأدنى، بما تَوَفّر في الحاضرة القيروان، من وجود أطباء دعّمهم حكام الدولة الأغلبيّة، خاصّةً الأمير زيادة الله الثالث التَميمي(290-296هـ/903-909م)، ونظرًا لحاجة المجتمع المتزايدة إلى الاستشفاء من

مختلف العِلّل، فقد لَمع الطبيب أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن علي بن أبي خالد؛ المعروف ب"ابن الجزّار"(ت 369هـ/979م)، ليساعد مختلف الطبقات الاجتماعيّة، بما يصفه من دواءٍ، مساعدًا الفقراء والمساكين خاصّةً، بما يجدونه في بيوتهم من عقاقير تُعدُّ أدويّةً نافعة لِما يعْرَضُ لهم من أمراض، فكان ذلك مدعاةً لتأليف كتاب "طبِّ الفقراء والمساكين".

اخترت دراسة مضمون الكتاب للوقوف على مبتغاه، متّبعةً طريقة المقارنة، بما كتب الأوائل قبله في الموضوع أو المقاربة، مُعلِّلةً ومُحلِّلةً في الوقت نفسه، للإجابة على إشكالية تبحث في جديد إضافات الطبيب ابن الجزّار للطبّ، من محتوى الكتاب: ما جديد مظاهر تطوّر الطبّ في المغرب الأدنى من خلال كتاب "طب الفقراء والمساكين" للطبيب ابن الجزّار القيرواني(ت 369هـ/ 979 م)؟.

جاءت دراستي في محاورٍ ثلاثة، ضمّنتُ كلًّا منها مجموعةَ مباحثٍ، فالمحور الأوّل، خصّ التعريف بالطبيب ابن الجزّار(المولد والنشأة والوفاة، ثمّ ثقافته وبعضٌ من سيرته)، أمّا الثاني، فلِبيئته(النهضة الأدبيّة والعلميّة في القيروان زَمَن الطبيب ابن الجزّار، وأساتذته، وما قيل عن كُتُبه)، في حين خصّ الثالث كتاب "طبّ الفقراء والمساكين" وتطوّر الطبّ(جزءٌ خاص بأخلاقيات الطبيب، وآخر للأدويّة).

1- التعريف بالطبيب ابن الجزّار: ترجمت عدّة مصادر إسلاميّة لشخصيّة الطبيب ابن الجزّار القيرواني، فتشابهت في مجملها مع بعضها البعض نتيجة للنقل، واهتمّت بذِكر ما يخصّ تاريخ ميلاده، ووفاته بالتقريب، ثمّ صفاته وسلوكياته، ثمّ بيئته وأساتذته وبعض تلاميذه كالتالي:

1-1 **المولد والنشأة والوفاة**: هو أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد الطبيب، ويُعرف ب"ابن الجزّار القيرواني"، كان طبيبًا حاذقًا، دارسًا لسائر العلوم(الصفدي، ج6، 2000: 133)، أمّا بالنسبة لتاريخ ميلاده فلم تحدّده المصادر إلاّ بالتقريب؛ إذ ذكر المؤرّخ الصفدي (ت764هـ/1364م) "وكان موجودًا في أيّام المعزّ، في حدود سنة خمسين وثلاثمائة أو ما يقاربه(الصفدي، ج6: 133)، وذهب المؤرّخ ابن أبي أصيبعة(ت668هـ/1270م) "وعاش أحمد بن الجزّار نَيْفًا وثمانين سنة، ومات عَتِيًا بالقيروان(ابن أبي أصيبعة ،دس: 481)،

وعاش نيفًا وثمانين(ابن جلجل، 1985: 89)، وكان في أيّام المعزّ لدين الله، أبو تميم، مَعَدْ بن المنصور بنصر الله، أبي طاهر، إسماعيل(341-365هـ.953م/976م)، في حدود سنة خمسين وثلاثمائة أو ما قاربها (ابن جلجل، 1985: 188)،(ياقوت الحموي، ج1 :188).

تاريخ وفاته اختلفت المصادر في ضبطه، بعضها ذكر أنّه توفيّ خلال السنة الأولى من خلافة المعزّ بالله، أبو المنصور، نزار بن المعزّ لدين الله، أبي تميم مَعَدْ (365هـ/ 386هـ-976م/996م) الذي خدمه بالطبّ بالقيروان، وقد تحوّلت القيروان إلى العاصمة المصريّة، على الرغم من كثرة الأطباء وشهرتهم في تونس خلال هذه الفترة، ولكن أصبحت القاهرة المعزّيّة مركز ثِقلٍ علمي واقتصادي وسياسي وعمراني وحضاري خلال العصر الفاطمي، أمّا ابن أبي أصيبعة فلم يذكر تاريخ ولادته ووفاته؛ بل اكتفى بالقول أنّه وُلد وعاش ومات بالقيروان، عن عمرٍ ناهز الثمانين، فيما يذكر الحموي أنّه عاصر القاضي النعمان، من فقهاء الإسماعيليّة الذي مات في مصر سنة(363هـ/974م)(سادسة حلاوي: 30)، وكثُرت أمواله وحَشمَتُه(الذهبي، 1996، ج15: 561).

2-1 ثقافته وبعضٌ من سيرته:

يصنّفه المؤرّخ ابن صاعد الأندلسي(ت462هـ/ 1070م) ضِمن فئة العلماء الطبيعيّين "وممّن اشتهر بعلم الطبّ وسائر العلوم المُسْتَنْبَطة من العلم الطبيعي"(ابن صاعد الأندلسي، 1912: 60)، الطبيب ابن الجزّار، أبو جعفر أحمد بن أبي خالد : ويُعرف ب"ابن الجزّار"، من أهل القيروان، طبيب ابن طبيب وعمّه أبوبكر طبيب(ابن أبي أصيبعة، دس: 481).

"كان حافظًا للطبّ، دارسًا للكتب، جامعًا لتواليف الأوائل، حسنَ الفهم لها، وممّن اشتهر بعلم الطب"(ابن صاعد الأندلسي، 1912: 60)، "وكان من أهل الحفظ والتطلّع والدراسة للطبّ، وسائر العلوم،حسَنَ الفهم لها"(ابن أبي أصيبعة، دس:481)، ويضيف المؤرّخ ياقوت الحموي(ت626هـ/1230م) إلى صفاته " كان طبيبًا حاذقًا دارسًا(ياقوت الحموي، 1993، ج1 :187)، في حين صنّفه المؤرّخ الإمام الذهبي (ت 748هـ/1348م) ضمن فئة الفلاسفة "ابنُ الجزّار: الفيلسوفُ الباهر، شيخ الطبّ، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد القيرواني(الذهبي،1996، ج15: 561).

أمّا المؤرّخ ابن جلجل(ت377هـ/988م) فصنّفه ضمن الطبقة الثامنة التي خصّها بذِكر حكماء الإسلام، ممّن سكن المغرب، أبو جعفر بن الجزّار، أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد الجزّار، قيرواني الدار، مسلم النِّحلة، طبيب ابن طبيب، وعمّه أبوبكر... وكان من أهل الحفظ والتطلّع والدراسة للطبّ، وسائر العلوم(ابن جلجل، 1985: 88، 89).

وتتبّع المؤرّخون سلوكياته اليوميّة وأخلاقه وثروته، حتّى ذكر المؤرّخ ابن صاعد الأندلسي أنّه" كان مع هذا جميل المذهب، فاضل السيرة، صائنًا لنفسه، منقبضًا عن الملوك، ذا وقْر، وثروة"(ابن صاعد الأندلسي، 1912: 62)، وهو نفس الكلام الذي ذكره المؤرّخ ياقوت الحموي، مع إضافة عبارة " ولم يكن يقصد أحدًا إلى بيته"(ياقوت الحموي، 1993، ج1 :187)، وهناك من فسّر ذلك بأنّه"مستقلّ في طبيعته، فهو لا يريد مثل أسلافه في المغرب العربي أن يرتبط بشخصٍ الأمراء"(Lucien leclerc ;407)، وكان له معروفٌ وأدويةٌ يفرّقها(ياقوت الحموي، 1993، ج1 :187)، (الصفدي، ج6، 2000: 133).

وذكر المؤرّخ ابن أبي أصيبعة "وكان قد وضع على باب داره سقيفةً أَقْعَد فيها غلامًا له يسمّى "بَرْشِيق" أعدّ بين يديه جميع المعجونات والأشربة والأدويّة، فإذا رآى القوارير بالغَداة أَمَرَ بالجواز إلى الغلام، وأخْذَ الأدويّة منه نزاهةً بنفسه أن يأخذ من أحدٍ شيئًا(ابن أبي أصيبعة: 481)، وهذه السلوكيات تتفّق مع ما جاء في الوصيّة الطبيّة؛ أي: أنّه كان يصنع الأدوية ويوزّعها عن طريق غُلامه دون مالٍ أو ربحٍ.

وفصّل المؤرّخ الصفدي في بعض سلوكياته مع محيطه، دون تخصيصٍ منه للطبقة التي يقصدها(الخاصّة أو العامّة) "وكان ابن الجزّار يشهد الأعراس والجنائز، ولا يأكل فيها، ولا يركب إلى أحدٍ من أهل إفريقيّة قطّ، ولا إلى سلطانهم إلّا إلى أبي طالب عمّ مُعَدّ، كان له صديقًا قديمًا، وإلْفًا حميمًا، وكان يركب إليه في كلّ جمعة مرّةً لا غير، وكان ينهض في كلّ عامٍ إلى المُرَابَطِة على البرّ، فيكون هناك طول أيّام الغَيْظِ، ثمّ ينصرف إلى إفريقيّة (الصفدي، ج6، 2000: 133).

نقل المؤرّخ ابن جلجل مدى التزام الطبيب ابن الجزّار وجدّيته في عمله، وأداء واجباته تجاه نفسه والناس، وكان قد أخذ بنفسه مأخذًا عجيبًا في سمتِه وهَدْيِه

وقُعُوده، ولم تُحْفَظْ عليه بالقيرون زلّة قطّ، ولا أخْلد إلى لذّةٍ، وكان يشهد الجنائز والعرائس ولا يأكل فيها، ولم يركب إلى أحدٍ من رجال إفريقيّة ولا إلى سلطانها إلّا إلى أبي طالب عمّ مَعَد كان له صديقًا قديمًا، وكان يركب إليه كلّ جمعةٍ لا غير، وكان ينهض في كلّ عامٍ إلى المنستير (رابّة على البحر- فيكون هنالك طول أيّام القيظ، ثمّ ينصرف إلى افريقيّة(ابن جلجل، 1985: 89).

ويضيف المؤرّخ ابن جلجل حديثًا عن مكانة الشخصيات التي تردّدت على موضع ومجلس الطبيب ابن الجزار القيرواني للتداوي، وشُفِيت فعلًا من دائها، دون ذكره لاسم الداء وأعراضه وتشخيصه "حدّثني عنه مَنْ أثقُ به قال: "كنتُ عنده غداةً في دهليزه، وقد غَصّ بالناس؛ إذ أقبل ابن أخي النعمان القاضي، وكان حَذِقًا جليلًا بإفريقيّة يستخلفه القاضي إذا مَنَعَهُ مانعٌ عن الحكم فلم يجد في الدهليز موضعًا يجلس فيه إلّا مجلس أبي جعفر، فخرج أبو جعفر، فقام له ابن أخي القاضي على قدمٍ فمَا أقْعَدَهُ ولا أنزله، وأراه قارورةً بماءٍ كانت معه لابن عمّه ولدِ النعمان، واستوفى جوابه عليها، وهو واقفٌ، ثمّ ركب ونهض، وما كَدَحَ ذلك في نفسه، وجعل يتكرّر عليه بالماء في كلّ يوم، حتّى برأ العليل (ابن جلجل، 1985: 89).

ويضيف المؤرّخ ابن جلجل كلامًا، نقله عن شخصٍ لم يذكر اسمه تحديدًا، إنّما اكتفى بأنّه كان من جلساء الطبيب ابن الجزّار الذي كان يرفض أعطيات وهدايا مقابل العلاج لمرضاه، مع تحديده في القول لمن عالجه من طبقة الخاصّة "قال الذي حدّثني: "فكنتُ عنده ضحْوةَ نهارٍ؛ إذ أقبل رسول النعمان القاضي بكتابٍ يشكره فيه على ما تولّى من علاج ابنه، ومعه منديلٌ بكسوة وثلاثمائة مثقالٍ، فقرأ الكتاب وجاوب شاكرًا، ولم يقبض المال ولا الكسوة" قال الذي حدّثني: فقلتُ له: "أبا جعفر، رِزْقٌ ساقه الله إليك تَرُدُّه؟"، قال لي:" والله. لا كان لأحدٍ من رجال دولة مَعَدّ قبلي نِعمة"(ابن جلجل، 1985: 89).

2- بيئته:

يمكننا تحديد بعض خصائص بيئته تَبَعًا للمكان والسياسة والتميُّز العلمي وقتها في القيروان خاصّةً كالتالي:

2-1 النهضة الأدبيّة والعلميّة في القيروان زَمَن الطبيب ابن الجزّار:

عاش الطبيب ابن الجزّار بالقيروان كامل مراحل حياته في وجود الدولة العُبيديّة الشيعيّة بالقيروان، حيث ثار الصراع الفقهي المذهبي عنيفًا بين أهل السنّة وأهل الشيعة، وتعدّدت الثورات والانتفاضات ...إلّا أنّ المدّ الحضاري العلمي ظلّ مواصلًا مسيرته، معتمدًا على ثلاث مدارس علميّة ثقافيّة شكّلت نهضةً أدبيّةً ودينيّةً، وركّزت كتب التراجم على مدى تبحّر علماء هذه الفترة في اللغة العربيّة وعلومها؛ لارتباطها بالنصّ الديني عمومًا، ونذكر أمثلةً لعلماءٍ من فترة بحثنا منهم:

-**القزّاز، أبو عبد الله، محمّد بن جعفر التَمِيمي النَحْوي**، المعروف ب"القزّاز القيرواني"، الغالب عليه علم النحو واللغة، والافتتان في التواليف، ككتاب"الجامع" في اللغة، وهو من الكتب الكبار المختارة المشهورة، كان في خدمة العزيز ابن المعتزّ العُبَيْدي، صاحب مصر، وصنّف له كتبًا (ابن خلّكان ، 1994، ج3: 374، 375)، وقال عنه المؤرّخ الذهبي"العلّامة إمام الأدب أبو عبد الله، محمّد بن جعفر التميمي القيرواني النحوي، مؤلّف كتاب الجامع في اللغة، صنّف كتُبًا للعزيز العُبيدي صاحب مصر"(الذهبي،1996، ج 17: 326).

وقال غيره: "كان العزيز بن المعتزّ العُبَيْدي، صاحب مصر قد تقدّم إليه أنّ يؤلّف له كتابًا يجمع فيه سائر الحروف التي ذكر النحويون أنّ الكلام كلّه اسمٌ وفعلٌ وحرفٌ جاء لمعْنًى، وأنّ يقصد في تأليفه إلى ذِكر الحرف الذي جاء لمعنًى، وأن يجري ما ألّفه من ذلك على حروف المعجم، وقد قال الطبيب ابن الجزّار: "وما علمتُ أنّ نحْويًا ألّف شيئًا من النحو على هذا التأليف، فتنازعَ أبو عبد الله القزّاز إلى ما أمّره العزيز به، وجمع المفترق من الكتب النفيسة في هذا المعنى، على أقصدِ سبيلٍ وأقرب مأخذٍ، وأوضحِ طريقٍ، فبلغ جملة الكتاب، ألفَ ورقةٍ، وله كتاب "التعريض"، ذكر فيه ما دار بين الناس من المعاريض في كلامهم"، وكانت وفاته بالحضرة القيروان سنة(412هـ/1022م)، وقارب السبعين(ابن خلّكان، ج3، 1994: 375 ،376)، وكلّ هذا يدلّ على مدى استفادة الطبيب ابن الجزّار من أدب القزّاز العالم.

ابن أبي زيد، الإمام العلّامة، القُدْوة، الفقيه، عالم أهل المغرب، أبو محمّد، عبد الله بن أبي زيد القيرواني المالكي، ويقال له:"مالكٌ الصغير"، وكان أحد مَنْ بَرَز في العلم والعمل، قال القاضي عِياض(ت544هـ/1150م):"حاز رئاسة الدين والدنيا، ورحل إليه من الأقطار، ونجّبَ أصحابه، وكثر الآخذون فيه، وهو الذي لخّص المذهب، وملأ البلاد من تواليفه، تفقّه بفقهاء القيروان،...، صنّف كتاب:"النوادر والزيادات"، في نحو مئةِ جزءٍ، واختصر المدوّنة، وعلى هذين الكتابين المعوّل في الفُتْيا بالمغرب، وصنّف "كتاب العُتْبية" على الأبواب، وكتاب "الاقتداء بمذهب مالك"، وكتاب "الرسالة"، وكتاب "الثقة بالله"، و"التوكّل على الله"، وكتاب "المعرفة والتفسير"، وكتاب "إعجاز القرآن"، وكتاب "النَهي عن الجدال"، و"رسالته في الردّ على القدَريّة"، و"رسالته في التوحيد"، وكتاب "من تحرّك عند القراءة"، وقيل: "مات ابن أبي زيد، نصف شعبان سنة (389هـ/999م)". (الذهبي،1996، ج12: 11، 12).

ابن التَبّان، عالم القيروان، شيخ المالكيّة أبو محمّد، عبد الله بن إسحاق المغربي، ابن التبّان قال القاضي عياض: "ضُربت إليه أباط الإبل من الأمصار لذبّه عن مذهب أهل المدينة، وكان حافظًا بعيدًا عن التصنّع والرياء، فصيحًا، كبير القدر، توفيّ سنة(371هـ/982م) .(الذهبي، 1996: 319، 320)،

وعليه فإنّ كانت البيئة القيروانيّة في عصر الطبيب ابن الجزّار كانت بيئة إنتاج فكري وعلمي حضاري تعتمد على التجديد والسبْق، على الرغم من الاختلاف المذهبي لعلمائها، والمطالع لمؤلّفات شيوخ المدرسة الطبيّة القيروانيّة يجد ذلك التطوّر أيضًا بالنسبة للطبّ، فقد ظهر الاعتناء به في عاصمة الأغالبة، على عهد زيادة الله الثالث (290-296هـ/903-909م) الذي استدعى الطبيب إسحاق بن عِمران من بغداد وأَوْلاه كلّ عناية في أوّل أمره،

2-2 أساتذته:المدرسة الطبيّة القيروانيّة وضع أسّسها ثلاثة شيوخٍ هم: المصري "إسحاق بن عمران"، واليهودي "إسحاق بن سليمان"، ثمّ القيرواني"أبو جعفر ابن الجزّار"، ويذكر ابن جلجل، في الطبقة الثامنة من حكماء الإسلام؛ ممّن سكن المغرب، الطبيب

إسحاق بن عمران الملقّب باسم "ساعة"، مسلم النِحلة، بغدادي الأصل، دخل القيروان في دولة زيادة الله بن الأغلب، وهو استجلبه، وأعطاه شروطًا ثلاثة لم يفِ له بأحدها، بعث إليه عند وروده عليه راحلة أقلّته، وألف دينار لنفقته، وكتاب أمان بخطّ يده، أنّه متى أحبّ الانصراف إلى وطنه انصرف(ابن جلجل، 1985م:84، 85)، وهناك من الدارسين مَن علّق بقوله "مِنْ بين جميع الدوّل الإسلاميّة كان المغرب العربي هو الدولة الوحيدة التي لم يتجذّر فيها العلم بشكلٍ قاطع، وأَشْرَقَ فقط مع تألّقٍ عابرٍ، ومرّةً أخرى رسولُ الطبّ في هذا البلد شهيدُه منذ بداية القرن العاشر يقصد " الطبيب إسحاق بن عمران"(Lucien leclerc ,407).

ولعلّ ذلك ما تجلّى في ما خلّفه من كتاباتٍ "وبه ظهر الطبّ بالمغرب، وعُرفت الفلسفة، وكان طبيبًا حاذقًا، مميّزًا بتأليف الأدويّة المركّبة، بصيرًا بتفرقة العِلّل، أشْبهَ الأوائل في علمه، وجَوْدة قريحته، استوطن القيروان حينًا، وألّف كتبًا منها: كتاب المعروف ب"نزهة النفس"، و"كتاب في داء المالِيخونيا" لم يُسْبَقْ إلى مثله، و"كتابه في الفَصْد"، و"كتابه في النبض"، ودارت له مع زيادة الله بن الأغلب محنة أوْجبت الوحشة بينهما، حتّى صلبه ابن الأغلب، وكان إسحاق قد استأذنه في الانصراف، فلم يأذن له، وكان إسحاق يشاهد أكل ابن الأغلب، ويقول له: "كُلْ هذا، دعْ هذا..." (ابن جلجل، 1985م: 85)، أمّا المؤرّخ الصفدي فذكر "الطبيب إسحاق بن عمران، طبيب مشهور، يُعرف ب" الساعة"، بغدادي الأصل، دخل إفريقيّة في دولة زيادة بن الأغلب، وبه ظهر الطبّ في المغرب، وعُرفت به الفلسفة (الصفدي: الوافي بالوفيات، 2000، ج8: 272).

ويضيف المؤرّخ ابن صاعد الأندلسي؛ أنّه كان مُقَدَّمًا في جوْدة القريحة، وصحّة العلم، وهو الذي ألّف بين الطب والفلسفة بديّار العرب، وله كتبٌ جليلة منها، كتاب نزهة النفس، وكتاب النبض، وكتاب المالنخوليا، وكتاب الفَصد، وغيرها، وجرت له مع زيادة الله بن الأغلب أمور أحْنقته عليه لفرط جوْره وسَخْف رأيّه، فأمر بفصد ذراعيه فسال دمِه إلى أن مات، ثمّ أمر به فصُلِب، ومكث مصلوبًا زمانًا طويلًا، حتّى عشّش في جوفه طائر. والله أعلم(ابن صاعد الأندلسي،1912: 60، 61)، والظاهر أنّ الطبيب ابن الجزّار قد تمّ تصنيفه ضمن فئة العلماء الذين اشتهروا بعلم الطبّ وسائر العلوم

المُسْتَنْبَطة من العلم الطبيعي(ابن صاعد الأندلسي، 1912: 60) كأستاذه إسحاق بن عمران الذي انتهج منهجه.

أمّا أستاذه الثاني فهو، الطبيب إسحاق بن سليمان الإسرائيلي، مصريٌّ، كحّال في أولّيته، سكن القيروان، ولازم إسحاق بن عِمران، وتلْمذ له، ودعّم عُبَيد الله الشيعي بصناعة الطبّ، وكان طبيبًا لَسِنًا، عالمًا بتقاسيم الكلام، وتفريغ المعاني، وعاش مائة سنة ونيفًا، وله تواليفٌ: "كتابه في البَوْلِ"، "كتابه في الغذاء والدواء"، وله في الفلسفة كتبٌ منها: كتابه الذي سمّاه "بستان الحكمة"، و"كتابه في الحدود"، و"كتابه في المنطق"، و"كتابه في التِرياق"(ابن جلجل، 1985م: ص87)، وكان ابن الجزّار تلميذ إسحاق بن سليمان الإسرائيلي(الذهبي، 1996، ج15: 561)، وهناك من قال بأنّه صحِب أستاذه "وكان ممّن لقيّ إسحاق بن سليمان وصحبه، وأخذ عنه(ابن جلجل، :88)، (ابن أبي أصيبعة: 481)، وأضاف المؤرّخ ابن جلجل تفاضيلًا عن حياته" إسحاق سليمان الإسرائيلي، مصريٌّ، كحّال في أوّلّيّته، سكن القيروان، ولازم إسحاق بن عمران، وتَلْمذ له، وخدم عبيد الله الشيعي بصناعة الطبّ، وكان طبيبًا لسِنًا، عالمًا بتقاسيم الكلام وتفريغ المعاني، وعاش مائة سنة ونيفًا، ولم يتّخذ امرأةً، ولا أعقب ولدًا..." (ابن جلجل، 1985 :87).

وكان الطبيب ابن الجزّار بفضل ما اشتهر به مقصدًا للأطباء وطلبة العلم من داخل المغرب وخارجه، فقد ذكر ابن أبي أصيبعة، شخصيّة "عُمَر بنُ حفْص بن بَرْتَق"، وكان طبيبًا فاضلًا، قارئًا للقرآن، مُطربَ الصوت، وكان له رحلة إلى القيروان، إلى أبي جعفر ابن الجزّار، لزمه ستّة أشهر لا غير، وهو أدخل إلى الأندلس كتاب "زاد المسافر"(ابن أبي أصيبعة: 482)، ولعلّ هذا التفوّق والتفضُّل العلمي هو الذي لاحظه بعض الدارسين وعلّق عليه" نحن يجب أن نشير بشكلٍ عابرٍ إلى هذا الدليل على التسامح العربي، وقُبولِ الدِينِ الثلاثة البارزين الذي سنرى منه أمثلة في كلِّ مكانٍ بعد هؤلاء الأطبّاء الثلاثة البارزين، كلُّهم يستحقّون الثناء، الثلاثة الأوّل، لرسالته التعيسة، والإثنان الآخرَيْن لتقديم مواد إرشاديّة لنا في العصور الوسطى"(Lucien leclerc ,407).

2-3 ما قيل عن كتبه:

اهتمّ المؤرّخون الذين ترجموا لشخصية الطبيب ابن الجزّار القيرواني بالحديث عن مؤلّفاته، وذِكر ما قيل عنها، وأحيانًا يذكرون ما قيل عن بعض كُتُبه تحديدًا "وله في الطبّ تواليفٌ عجيبة(ابن جلجل،:88)، وله تواليفٌ في غير الطبّ كتأليفه "التواريخ"، وتأليفه "كتاب الفصول والبلاغات"(ابن جلجل، 1985: 89)، والظاهر أنّ التأليف عنده لم يكن للطبّ فقط؛ بل لفنونٍ عدّة "كُتبه جامعة لتواليف الأوائل، فيه حُسنُ الفهمِ لها، وله فيه مصنّفات، وفي غيره، فمن أشهرها: "زاد المسافر"، و"رسالة في النفس وذِكر الاختلاف من الأوائل فيها"، وكان له عناية بالتاريخ، وألّف فيه كتابا سمّاه "التعريف بصحيح الأبرار"، و"كتاب الأسباب المولّدة للوباء في مصر والحيلة في دفع ذلك"،" رسالة في استهانة الموت" (الصفدي، ج6: 133).

وله مصنّفاتٌ حسنة في الطبّ وغيره، فمن أشهرها، كُناشه في علم الأمراض، المعروف ب"زاد المسافر"(أنظر التعليق رقم1)، وكتابه في الأدوية المُفردة المعروف ب"الاعتماد"، وكتابه في الأدوية المركّبة المعروف ب"البُغْية"، ورسائله في النفس وفي ذِكر اختلاف الأوائل فيها، وكان له أيضًا عناية بالتاريخ أدّته إلى أن يؤلّف فيه مختصرًا حسنًا سمّاه "كتاب التعريف في صحيح التاريخ" (ابن صاعد الأندلسي، 1912:ص62)، وهناك من ذكر تركته بعد وفاته من بينها، تآليفه الطبيّة"عشرون قنطارًا من كتب طبيّة وغيرها(ابن جلجل، 1985: 90)، ووُجد له أربعةٌ وعشرون ألف دينار وخمسة وعشرون قنطارًا من كتب طبيّة وغيرها(ابن أبي أصيبعة:481)، وله في الطبّ تواليف عجيبة(ابن جلجل، :88، 89).

أمّا المؤرّخ ياقوت الحموي، فقد أضاف إلى ما قيل عن كتبه وعناوينها " كُتبُه جامعة لتواليف الأوائل، فيه حُسْنُ الفهم لها، وله مصنّفات فيه وفي غيره،...، وكان أيضًا له عناية بالتاريخ ألّف فيه كتابًا رأيتُه في مجلّد يزيد على العشر سمّاه " التعريف بصحيح التاريخ"(ياقوت الحموي، 1993،ج1 : 187)، وانفرد المؤرّخ الذهبي بذِكر كتاب"طبّ الفقراء" ضمن مجموعة مؤلّفاته "وصنّف الكثير، من ذلك كتاب "زاد المسافر" في الطبّ، و"الأدويّة المفردة"، و"رسالة في النفس"-طويلة-، وكتاب "ذمّ إخراج الدمّ"،

وكتاب "أسباب وباء مصر، والحيلة في دَفْعه"، وكتاب "دولة المهدي وظهوره بالغرب"، وله كتاب "طبُّ الفقراء"، وأشياء أخرى(الذهبي، 1996،ج15: 561، 562).

3- كتاب "طبّ الفقراء والمساكين"وتطوّر الطبّ:

كتاب "طبّ الفقراء والمساكين"؛ أحد مؤلّفات الطبيب ابن الجزّار، فيه جديد يتعلّق بأخلاقيات الطبيب، وتطوّر الطبّ البشري في حدّ ذاته، من حيث الدواء وطرُق التداوي. يمكننا توضيحهما في الآتي:

3-1- الخاص بأخلاقيات الطبيب:

من مقدّمة كتاب "طبّ الفقراء والمساكين" ظهرت إنسانيّة الطبيب ابن الجزّار وأخلاقه الرفيعة التي نصّت عليها المواثيق الطبيّة السابقة، فقد جاء في النّاموس الطبّي لأبُقراط(أنظر التعليق رقم 2)"إنّ الطبّ أشرف الصنائع كلّها، إلاّ أنّ نُقْصَ فهْم مَنْ ينتحلها، صار سببًا لسلب الناس إيّاها؛ لأنّه لم يوجد لها في جميع المدن عيبٌ غيرُ جهل مَنْ يَدَّعيها؛ ممّن ليس بأهل للتسّمّي بها، إذ كانوا يُشَبِّحون الأشْباح التي يُحضرها أصحاب الحكاية ليلْهوا الناس بها، فكما أنّهم صُوَرٌ لا حقيقة لها، كذلك هؤلاء الأطبّاء بالاسم كثير، وبالفعل قليل، وينبغي لمن أراد تعلّم صناعة الطبّ، أن يكون ذا طبيعة جيّدة مؤاتيّة، فينبغي أن يُقبِل على التعلّم، ولا يضجر؛ ليتطبّع في فكره، ويُثمرَ ثمارًا حسنة(ابن أبي أصيبعة: 46).

وهو ما ينطبق على ما بدأ به الطبيب ابن الجزّار كتابه هذا "إنّي رأيتُ كثيرًا من عظماء الأطباء وأفاضلهم وضعُوا كُتبًا في علاج الأدواء التي تعْرَض في جميع الأعضاء، وعُنُوا من ذلك بحسب ما هو للعناية أهل، إلّا أنّ منهم من طوَّل وأكثر في مقدار الحاجة، ومنهم من قصّر عمّا يحتاج إليه"(ابن الجزّار، 2009: 75)، والظاهر أنّه كان يقصد أوائل الحكماء والأطباء، فأبُقراط، كان أمير فنّ الطبّ، وأوّل مَنْ كتب عنه، ألّف فيه العديد من الأعمال على جميع فروع الطبّ، لكنّه استخدم في كتاباته الاختصار الشديد لدرجة أنّ العديد من كلماته غامضة وتحتاج إلى تعليق القارىء، أمّا بالنسبة لجالينوس(أنظر التعليق رقم 3)، فهو عظيمٌ جدًّا وممتاز جدًّا، فقد ألّف العديد من الأعمال كلٌّ منها

يشمل علمًا واحدًا فقط من أجزاء العلم، لكنّه أطال وكرّر في تقديم مظاهره وبراهينه (Lucien leclerc ,384).

وهذا يبيّن أنّ دافع تأليف الكتاب كان منهجيًا، والغاية منه تأليف كتاب فيه تسهيلات من جهة، ومن جهة أخرى يوضّح ضرورة الثقافة للطبيب والاطّلاع على مختلف الدراسات والكتب الطبيّة ومناهجها، وهو نفس المنحى الذي ذكره الطبيب محمّد بن الرازي(ت313هـ/923م) في ثقافة الطبيب "إنّ من الأمراء والملوك والرؤساء منْ يكون عامّيًا، ومن الأكابر من يصادف أمّيًا فيحسبون بقلّة علمهم وكثرة جهلهم أنّ كلّ من نُسب إلى علم فهو خليقٌ بأن يجيب عن كلّ ما يُسأل من ذلك العلم، فإنْ عُنِيَّ بمسألة فإنّهم ينسبونه إلى الجهل وليسوا يدرون أنّه ربّما أصاب الأَخْرَقَ وأَشْوَى الحاذق، وربّما أكل على العالم النَحْرير المسألة التي يجيب عنها أقلّ تلامذته علمًا وأجلّهم فهمًا، لا أنّه ليس يحفظها أو لم يقرأها ولم يسمعها، لكن لِعَوزِ الكمال في الإنسان، ويظنّون بقلّة معرفتهم؛ بل يعتقدون ذلك أنّ منْ قرأ نوعًا من العلم، وشرع في فنٍّ من ذلك أنّه لا يجوز أن يذهب عليه مثل ما وصفنا من: نسيان شيء أو الإغفال عنه أو الغلط فيه، وهذا ممّا ليس ينكره أحدٍ ممّن تدرّب في نوعٍ من العلم، أيّ نوعٍ كان منه، فأمّا الأمّيون والعامّيون، فإنّهم يتوهّمون؛ بل يعتقدون أنّ كلّ من نسب إلى علم النجوم، فإنّه لا محالة يعلم الغيب، وأنّ من نُسب إلى الطبّ، فإنّه يقدر أن يزيل كلّ مرض ويشفي كلّ سقمٍ(الرازي،1977: 21، 24)، وهذا يبيّن أنّ ما لاحظه الطبيب الرازي هو نفسه الذي اهتمّ به الطبيب ابن الجزّار، مع اختلاف المكان والزمان طبعًا.

وبطريقة غير مباشرة يبيّن الطبيب ابن الجزّار أنّ ثقافته الطبيّة بمطالعاته هي التي أهلّته لتأليف كتابه" فألّفتُ عندما علمتُ من ذلك كتابًا في علاج الأدواء التي تعْرَضُ في جميع أعضاء البدن، وسمّيتُه "زاد المسافر وقُوت الحاضر"، وأخرجتُه من فساد التكليف والتطويل، ومن سماجة التعقيد والتوغيل، فشاع في البلدان خبره وحسُن عند الحكماء أثره(ابن الجزّار، 2009: ص75)، وكتاب "زاد المسافر" لم يصل به إلى الغاية التي توخّاها الطبيب ابن الجزّار؛ ربّما لأنّه كان كتابًا للخاصّة دون العامّة، ولم يتأتّ

للعامّة خاصّةً الفقراء والمساكين الاستفادة منه لعدم حصولهم على مواد العلاج " إلّا أنّي لمّا رأيتُ كثيرًا من الفقراء وأهل المسكنة عجزوا عن إدراك منافع ذلك الكتاب وغيره من سائر الكتب التي ألّفتْها الحكماء في حِفظ الصحّة على الأصحّاء، وإبراء المرضى من وجعهم، وردّهم إلى الصحّة؛ لفقرهم وقلّة طاقتهم عن وجود الأشياء التي هي مواد العلاج، ولتعذّر وجود الطبيب لها في الكميّة والكيفيّة يكون شفاءً من الأمراض؛ أعني: الأطعمة والأشربة والأدويّة(ابن الجزّار، 2009: 76).

والواضح أنّ غاية الطبيب ابن الجزّار هو إيداع أسرار صناعة الطبّ والأدويّة لدراسي الطبّ ومُحبيه من باقي الفئات الاجتماعيّة، وهو بذلك يُكْسِبه صفة المعلِّم، وفي نفس الوقت فمحتوى الكتاب يَحُلُّ محلّ الطبيب عند الذي لا يَحْضُرُه طبيب عند مرضه "رأيتُ عند ذلك أن أجمع لمحبّي الطبّ ومَنْ يتمهّر في قراءة كتابنا هذا المسمّى ب"زاد المسافر"، وعلِم منه العلّل وأسبابها ودلائلها وطرق مداواتها بالأدويّة التي يسهُل وجودها بأخفّ مؤونة وأيسر كُلفةٍ، فيسهُل عند ذلك علاج العوام على الأطباء من أهل الفقر والمسكنة منهم بهذه الأدويّة التي جمعتُها من كتب جالينوس وديَاسْقُوريدُوس(أنظر التعليق رقم 4)، وبُولس(أنظر التعليق رقم 5)، وغيرهم من أفاضل الأطباء، وسمّيتُ هذا الكتاب ب"طبّ الفقراء"، ورتّبتُه على ثمانين بابًا -وبالله التوفيق-(ابن الجزّار، 2009: ص76).

كتاب "طبّ الفقراء والمساكين" يبحث في الأدويّة الرخيصة الثمن، وكان الدافع إلى تأليف هذا الكتاب بحسب قول مؤلّفه:" إنّي رأيت كثيرًا من الفقراء وأهل المسكنة عجزوا عن إدراك منافع ذلك الكتاب"، لذلك أراد أن يؤلّف لأجلهم كتابًا سهْل المآخذ يرجع إليه الفقراء للمداواة والنُصْح أو في حالة تعذّر استحضار الطبيب حالًا(سادسة حلاوي: 28)، وفي هذا تواضع الطبيب، وهي من أخلاقيات الطبيب التي دعى إليها الطبيب الرازي "واعلم أنّ التواضع في هذه الصناعة زينةٌ وجمالٌ (دون ضِعة النفس)، لكن يتواضع بحُسْن اللفظ (جيّد الكلام) ولِينِه، وتَرْك الفظاظة والغِلظة على الناس، فمتى كان ذلك فهو المسدِّد الموفّق، وكذلك أمرنا بهذه الخصال المحمودة التي أشار بها عليك الفاضل جالينوس"(الرازي، 1977: 84، 85).

وفضيلة التواضع التي تحلّى بها الطبيب ابن الجزّار ظهرت من خلال دافع تأليف، قد أكسبته المحبّين من كلّ الطبقات، فقد جاء في فضل الأطبّاء "أنّه قد اجتمع لهم خمسُ خصال لم تجتمع لغيرهم الأولى، اتّفاق أهلُ المِلل والأديان على تفضيل صناعتهم والثانيّة، اعتراف الملوك والسوقة بشدّة الحاجة إليهم؛ إذ هُمْ المَفْزَع والغياب حين لا ينفع عُدَّة ولا عشيرة والثالثة، مجاهدةُ ما غاب عن أبصارهم والرابعة، اهتمامهم الدائم بإدخال السرور والراحة على غيرهم والخامسة، الاسم المشتقّ من أسماء الله تعالى (الرازي، 1977: 87، 88).

وهو نفس النهج الذي سار عليه الحكيم أبقراط "لمّا نظر أبقراط في صناعة الطبّ، وخاف عليها أن تنقرض، عندما رآى أنّها قد بادت من أكثر المواضع التي كان أَسْقْلَبْيوس الأوّل(أنظر التعليق رقم 6) أسّس فيها التعليم(ابن أبي أصيبعة: 44)، ويضيف الطبيب الرازي من مزاياها " واعلم أنّك إذا تملّكتَ هذه الخصال ولازمتَها في سائر الأحوال كنتَ حريًّا بأنْ يخُصّك الملوك والسوقة، ويُقْبِل عليك الخاصّة والعامّة، ولا تخلو في خلال ذلك من ثوابٍ وذُخرٍ وجزيلٍ مثوبة، وحُسْن ذِكرٍ(الرازي، 1977: 94).

2-3 ما يخصّ الأدويّة:

جاء في نهاية "كتاب طبّ الفقراء والمساكين" أنّه مختصر لما ذكره في كتبٍ ألّفها من قبل، ككتاب زاد المسافر "وقد ذكرنا في كتاب زاد المسافر، وفي سائر كتُبنا علاج جميع العلّل التي ذكرناها في هذا الكتاب باستقصاءٍ شافي مؤدّي إلى العلاج وطريق النجاح، وإنّما اختصرنا في هذا الكتاب اللطيف علاج العلّل بالأدويّة التي يسهُل وجودها بأيسر كُلفةٍ، وأخفّ مؤونة لينال منافعها عامّة الناس وأهل الفقر والمسكنة منهم، (وفيه بحبل الله، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله وهو حسبنا ونعم الوكيل) (ابن الجزّار، 2009: 259).

وهو نفس ما جاء في تعريف المؤرّخ ابن خلدون(ت808هـ/1406م) للطبّ "ومن فروع الطبيعيات صناعة الطبّ وهي، صناعةٌ تنظُر في بدن الإنسان من حيث يمرَض ويصحّ، فيحاول صاحبها حفظ الصحّة وبُرْءَ المرض بالأدويّة والأغذيّة بعد أن يتبيّن المرض الذي يخصّ كلّ عضوٍ من أعضاء البدن وأسباب تلك الأمراض التي تنشأُ عنها وما لكلّ مرضٍ من الأدويّة، مستدّلّين على ذلك بأمزجة الأدويّة وقِواها، وعلى المرض بالعلامات المؤذيّة

بنُضجه وقبوله الدواء أوّلًا في السَّجيّة والفضلات والنبض، مُحاذين لذلك قوّة الطبيعة، فإنّها المُدَبّرة في حالَتَيْ الصحّة والمرض(ابن خلدون، 1989 :493).

اهتمام الطبيب ابن الجزّار بكُتب الأوائل، ككتب أبُقراط تشبُّهًا به، ورغبةً في السير على درْبه الذي رسمه لهذه الصناعة وممتهنيها "أمّا في عصر أبُقراط استطاع، على الرغم من انتمائه لعائلة سَقْلاب أن يُخرج الطبّ من دائرته الضيّقة، وأن يُتْبِع ممارسته لمن تتوافر فيهم الصفات اللازمة للطبيب، إنّ الصيدلة كعلمٍ لم تبدأ إلّا منذ ظهور أبُقراط اليوناني، وتعني "الفارس الماهر"، وأنّه ممّا خلَّد أبُقراط إنسانيّته ومثاليّته وحُبّه للناس وحثِّه الأطباء على إغاثة المرضى دون النظر إلى أيّ ربحٍ مادي، ولكن يُلْزم الطبيب بحُسن الخُلُق والمعاملة الحسنة، وكان أبُقراط يستعمل في علاجه نحوًا من 230 عقّارًا، ورد ذِكرها في المجموعة الأبقراطيّة (رامي الضلّي :17).

ويقول الشهرستاني(548هـ/1154م) بأنّ أبُقراط هو واضع الطبّ الذي قال بفضله الأوائل والأواخر، وكان أكثر حكمته في الطبّ وشهرته به(الشهرستاني، 2008، ج2: 133)، ويذكر ابن جلجل في الطبقة الثانيّة الحِكمِيّة الروميّة اليونانيّة؛ ممّن تكلّم في الطبّ والفلسفة، وبرع في ذلك بأنّ أوّلهم أبُقراط الذي كان مسكنه مدينة حِمص، من أرض الشامات، وهو الذي تكلّم في الطبّ، وألّف فيه الأسفار والكتب، ومن بين كتبه "كتاب القروح"، و"جراحات الرأس"(ابن جلجل، 1985 :16)؛ ممّا يدلّ على أنّ الطبيب ابن الجزّار أراد تطوير الموروث الطبّي العربي، ويتتبّع أهمّ ما توصّل إليه علماء اليونان، أمّا جالينوس الحكيم، الفيلسوف الطبيعي اليوناني، فهو من أهل مدينة "فرغاموس" من أرض اليونانيّين، إمّام الأطباء في عصره، ورئيس الطبيعيّين في وقته ومؤلّف الكتب الجليلة في صناعة الطبّ وغيرها، من علم الطبيعة وعلم البرهان.(القفطي، 2005: 99).

اهتمام الطبيب ابن الجزّار بطبيعة المكان لتوضيح سرّ صناعة الدواء، وهو نفس الشيء الذي اهتمّ به جالينوس، فكانت تعاليمه تنصّ على أنّ الطبيعة لا تُخْطىء؛ إذ قام جالينوس بوصف طرائق خاصّة لتحضير الأدويّة والعقاقير لذلك دُعِيّ العلم الذي تُحَضَّرُ بموجبه الأدويّة ب"علم الصيدلة الجالينوسيّة"، وكان يمارس مهنته "الطبيب الصيدلي" في مكان أطلق عليه اسم "الحانة الطبيّة" (رامي الضلّي، :22)، ونفس الشيء

أبرزه الطبيب ابن الجزّار في توضيحه لدور الطبيعة في المرض؛ إذ وصف أدويةً بما يوجد في بيئة المريض في بيئته.

وهو ما يتّفق مع ما ذهب إليه الطبيب الرازي "وقد أجْمَع الحُذّاق من الأطباء على أنّ الأهْويّة، المياه، والأخلاق والعادات والطباع مُتَنقِّلة بانتقال الكواكب وأَخْذِها في الطول والعرض(الرازي:112)، وذلك ما نستشفّه من نوع العقاقير التي كان يصفها للعلاج بها، والمؤكّد أنّها قد تكون بديلةً للعقاقير التي ذُكرت في كتب الطبّ للحكيمين (أبو قراط، وجالينوس)، وهذا البدل توصّل إلى فعاليّتها بطريقة التجريب، ولذلك سأستعرض أمثلةً من أبواب الكتاب الثمانين، ففي الباب الأوّل، في علاج الصداع المتولّد من الحرّ؛ إذا عُرِض الصداع في الصيف من التهاب الحرّ ، والمْشي في الشمس، فينبغي أن يُؤخذ دهن الورد فيُضْرب بخلٍّ، ويُصبّ منه على مقدم الرأس، فإنْ تعذّر دُهن الورد جُعِل مكانه زيتٌ طيّب، وإن تعذّر الخلّ جُعل مكانه ماءٌ باردٌ(ابن الجزّار، 2009: 82).

وهذه العقاقير متوفّرة عند البسطاء، ومن فيْض الطبيعة التي يسكنونها، ففي الباب الثاني، في علاج الصداع العارض من البرد المُفْرَط: "إذا عُرض الصداع في الشتاء عند إفراط البرد، فيُسكَب على الرأس دهن الفَيْجَن، وهي الرُوطَة أو يُدهن بأدهان مُسَخّنة مثل، دهن الرند أو دهن المَرْدَدُوش أو دهن البابونج أو دهن الشبْت أو دهن الأقحوان أو دهن السَوْسَن أو ما أشبه ذلك من الأدهان الحارّة أو يُؤْخذ ورق الرنْد رطبًا فيُدَقّ ويُخْلَطُ بدهن السوسن ويُوضَع على الرأس، وينفع من ذلك أيضًا التكميد بنشّافة (قد غُمِست في ماء حارٍ أو في ماء قد طُبخ فيه ورق الرند أو المرددوش، ويُجْعل على الرأس خِرق صوفٍ قد رُشق عليها خلّ خمرٍ، ودُهن طيّب ابن الجزّار، 2009: 84).

وينبّه إلى بعض الأمراض التي لا أعراض لها، ففي الباب الثالث، في علاج وجع الرأس من غير سببٍ، "وممّا ينفع من وجع الرأس المتقادم أن تُؤْخذ نُخالة فتُجعَل في بُرْمَة، ويُصبّ عليها خلٌّ حاذق، ويُطبخ طبخًا يسيرًا، ويُلزَم الرأس بفعل ذلك مرارًا، ثمّ يَدْخُل العليل الحمّام، ويُصّب على رأسه ماءً حارًّا، ثمّ يَخْرج، ويُعاد الضَماد عليه يَفعل ذلك ثلاثة أيّام أو أربعة أيّام حتّى يسكن الوجع -إن شاء الله-، وينفع أيضًا لوجع الرأس أن

يُؤْخذ دقيق الشعير، فيُجعل في بُرْمة، ويُجْعل معه بابونج يابس مدقوق، ويُصبّ عليه ماء طبيخ الآس، ويُهيَأ ضمادًا، ويُلْزم مقدّم الرأس وهو اليافوخ (ابن الجزّار، 2009: 86) .

والظاهر أنّه وضع في كتابه "طبّ الفقراء والمساكين" الأمراض التي قد تصيب هذه الفئة من الناس، مستشهدًا بما ذكره الحكيم جالينوس، ففي الباب الرابع: "في علاج الوجع العارض من سَقْطة أو ضربة يُعالج في ابتداء الحال(إنْ أمكنتك القوّة)، والسنّ والزمان بفصْد في القِيقال، وتسهيل الطبيعة بحقنة ليّنه، ويُصبُّ على الموضع في البداية ماءٌ قد طُبخ فيه ريْحانٌ وعدسٌ وقشور رمّان، وذكر جاليونس في علاج ذلك قال:" يُطبخ ورق ريحان رطبٍ، ويُدقُّ، ويُخْلَط مع مُرٍّ ، ويُضمَّد به الرأس". (ابن الجزّار، 2009: 87)، وهذا يتّفق مع ذكره المؤرّخ ابن خلدون من تمجيدٍ لجالينوس " وإمام هذه الصناعة التي تُرجمت كتبه فيها من الأقدمين جالينوس، يقال إنّه كان معاصرًا لعيسى -عليه السلام-، ويقال إنّه مات بصقلية ...وتآليفه فيها هي الأمّهات التي اقتدى بها جميع الأطباء بعده"(ابن خلدون، 1989: 493).

والباب الثامن، في علاج وجع الأذن العارض من البرد: "إذا عرض وجع الأذن من برد الهواء أو الريح الباردة البَلغمانيّة أو الورم البارد، فينبغي أن يُعالج بما أصف لك مثل، يُؤْخَذ زيْتًا فيُطبخ فيه سُذاب، ويُقَطّر في الأذن، وعصارة الفيجن إذا سُخِّنت في قشر رمّان، وقُطِّرت في الأذن كانت صالحة لوجعها(ابن الجزّار، 2009: 95)، ويفنّد مزاعم غيره من الأطباء الأوائل "وزعم دياسقوريدوزس أنّ ابنة وردان إذا سُحق جوفُها بزيتٍ أو إذا طُبخ زيتٌ وقُطِّر في الأذن سكَّن وجعها(ابن الجزّار، 2009: 96).

ويؤكّد ما جاء به الحكيم جالينوس "قال جالينوس الحكيم:" وقد رأينا قومًا من العلوج يأخذون بصلًا كبارًا فيجوّفونها، ويملؤونها زيتًا، ثمّ يضعونها على رمادٍ حارٍ، حتّى تنضج نضجًا بقِدْرٍ، ثمّ يُقَطرون منه الأذن(ابن الجزّار، 2009: 96)، والباب التاسع، في علاج ثِقل السمع والطنين فيها وسيلان القيْح منها ومن الماء إذا وقع عليها، قال جالينوس: "إذا قطّر ماء البصل وحده في الأذن نفع من ثِقل السمع وطنينها وسيلان القيْح منها ومن الماء إذا وقع فيها(ابن الجزّار، 2009: 96، 97)، فهو لا يشكّك فيما جاء به الحكيم جالينوس، بينما يفنّد مزاعم الحكيم دياسْقُوردوس، ففي الباب الرابع عشر، في علاج

الظلمة التي تحدُث في العينين بسبب مجهولٍ "وزعم دياسقوريدوس أنّ الخُطاف إذا أُحرقت الأمّ مع الفراخ في قدرٍ، وأُخذ رمادها، وخُلط بعسلٍ واكتُحلَ به أَحَدَّ البصر(ابن الجزّار، 2009: 103).

ونفس الشيء في الباب العشرين، في علاج البياض الحادث في العين، إذا حدث البياض في العين ولا سيّما في أعين الصبيان الصغار فتَأخذ أمّ الصبي ملْحًا أنْدراني مثل الحمصة، وبالغداة فتُلقيها في فمِّها حتّى إذا ذابت مجَّتها في عين الصبي، فإنّه يُذْهب البياض، أو تأخذ أمّ الصبي من لبنها قليلًا ومثله من عسلٍ غير مُدَخّن فتكتحل به العين، ويشكّك في من جاء بغير ما وصف به"وزعم دياسقوريدوس أنّ بَوْل الصبي إذا طُبخ في إناءٍ من نحاس مع عسل أجْلَى البصر من البياض العارض في العين من اندمال القروح، ولم يتوقف الحدّ التشكيك فيما قاله ديسقليديوس فقط؛ بل أيضًا فيما جاء به غيره " وزعم أرسطاطاليس(أنظر التعليق رقم 7) أنّ سحْق الحجر الذي يتولّد في الناس، وخُلط مع الأكحال نفع من بياض العين نفعًا نفسيًا(ابن الجزّار، 2009: 112)، والتشكيك لأنّ أرسطاطاليس فيلسوف الروم، (384ق.م . 323ق.م) لقِّب بصانع المنطق(ابن جلجل، ج10، 1955: 2).

وهكذا فمحتوى الكتاب بين واصف لأدوية ومشكّك مستهزِئٍ ببعض علاجات من تقدّم من الأطباء الأوائل، ما عدا الحكيم جالينوس، ربّما لأنّ هؤلاء الأطبّاء تكتّموا على إخراج الدواء لكلّ الناس ليبقى لمن أوجدوا الطبّ فقط، أمّا الباب الخامس والعشرين، ففي علاج الزكام المتولّد من الشمس: فزعم بعض الأطباء أنّ القرطاس إذا أشعلته في النار، وقرّبه صاحب الزكام من أنفه، ثمّ استُنشق راحته أذهب بالزكام، وكذلك تفعل بالمِيعَة(ابن الجزّار، 2009: 121)، والباب السادس والعشرين، في علاج الكَلَف والآثار السُود والنَمَشْ: وذلك أن يُؤخذ من لبن التين فيُعمل منه لُطوخ، مع دقيق الشعير، فإنّه يُنَقّي الكَلَف(ابن الجزّار، 2009: 121).

والباب الثامن والثلاثون، في علاج السُعال: إذا كان السعال من قِبل(النَزْلة) الرطوبة، وكان قديمًا، فينبغي أن يُؤخذ لذلك بِزْرُ كَتّان فيُغلّى، ويُعجن بكفايته من العسل المنزوع الرغوة، ويُتّخَذ منه على قدرِ الحاجة(ابن الجزار، 2009: 150)، أمّا الباب

الحادي والأربعين، ففي علاج الكبد، فيرفض فيه ما قال البعض "زعمت الأطباء أنّ كبد الذئب إذا جُفّفت، وسُحق ناعمًا، وأُخذ منه مقدار ملعقةٍ واحدة بشرابٍ حُلْوٍ تنفَّع به صاحب أوجاع الكبد من أيّ سوءِ مزاجٍ كان(ابن الجزّار، 2009: 155).

خاتمة: جمعت ما توصّلت إليه من نتائج وعلى أسّاسها اقترحت بعض التوصيات في الآتي:

- محتوى الكتاب ينشر الثقافة الطبيّة في العلاج لمساعدة المساكين والفقراء الذين لا يَحْضُرهم الأطباء أو لا يملكون ثمن الأدويّة التي تداوي عِلّلهم.

-الطبيب ابن الجزار يكرّر مسار حياة الأطباء الأوائل، خاصّةً جالينوس الذي أذاع سرّ صناعة الطبّ بعد أن باشرت أسرته على الفناء، فكذلك الطبيب ابن الجزّار من عائلة طبيّة، ربّما تخوّف هو الآخر من ضياع موروثه الطبّي وموروث عائلته الطبّي لذلك سعى لتعليمه.

-الطبيب ابن الجزّار لفت الانتباه إلى دور الطبيعة القيروانيّة تحديدًا في توفير عقاقير صناعة الأدويّة، ما يجعل السلطة تلجأ إلى تشجيع ممارسة الصيدلة .

-أثار الانتباه مجدّدًا إلى إنسانيّة ومثاليّة الطبيب الذي يجب عليه معالجة الإنسان، دون تمذهبٍ أو مراعاةٍ للربح المادي، وفقًا لما جاء في نصّ الوصيّة الطبيّة.

-الطبيب ابن الجزّار لم يشكّك في ما وصفه الحكيم جالينوس، بينما رفض ما قاله غيره خاصّةً ديقليديوس؛ كونه من الحكماء الأوائل الذين احتكروا الطبّ، ورفض ما قاله أرسطاطليس لأنّه روماني، بينما الطبّ كان يونانيًا، ولأنّ الطبّ يتطلّب التجريب للوصول إلى النتيجة، بينما الفلسفة تساعد بالمنطق في الوصول إلى الحقيقة.

-الطبيب ابن الجزّار يتّفق مع ما ذكره الطبيب الرازي في كتاب"كتاب مَنْ لا يَحْضُره طبيب"، لكنّه يختلف معه في التشكيك في جالينوس، لأنّ الطبيب الرازي له "كتاب الشكوك على جالينوس".

-محتوى الكتاب يمكن أن يُستفاد منه في صناعة معجم طبّي، وأيضًا في الاهتمام بزراعة الأعشاب الصيدلانيّة والنافعة لمواد التجميل التي ذكرها الطبيب ابن الجزّار في علاجاته للمرضى، ويشجّع على البحث في باقي أرض المغرب الأدنى على منافع العقاقير الأخرى.
ضرورة تنظيم ملتقى دولي بالتنسيق مع قسم الأدب الشعبي لرصد ما حوته الأُرْجُوزات والشعر الملحون من فوائد طبيّة.

التعليقات:

- **التعليق 01:** قال الشاعر كُشاجم(ت350هـ/ 962م) في مدح الطبيب ابن الجزّار مفاخرةً منه لما جاء في كتاب"زاد المسافر"، في شكل أبياتٍ شعريّة:أَبَا جَعْفَرَ أُبْقِيتَ حَيًّا ومَيِّتًا مَفَاخِر في طُهْرِ الزَمَانِ عِظَامًا/رَأَيْتُ عَلَى زَادِ المُسَافِرِ عِنْدَنَا مِنَ النَاظِرِينَ العَارِفِينَ زِحَامًا/فَأَيْقَنْتُ أَنْ لَوْ كَانَ حَيًّا لِوَقْتِهِ يَحْنَا لِمَا سُمّى التَمَأُم تَمَامًا/سَأَحْمَدُ أَفْعَالًا لِأَحْمَدٍ لَمْ تَزَلْ مَوَاقِعُهَا عِنْدَ الكِرَامِ كِرَامًا(ابن أبي أصيبعة، 482).

- **التعليق 02**:أحد أفراد أسرة سَقْلاب المكوّنة من (أسقلبيوس الأوّل، غورس أميتس، يوماندیس، أفلاطون الطبيب، أسقلبيوس الثاني، أبقراط، جالينوس(القفطي، 2005: 6)، وحيد دهره، الكامل الفاضل، الطبيب الفيلسوف الذي علّم الغرباء الطبّ، لأنّ مهنة الطبّ كانت متوارثة في ذلك الزمان، وله كتب كثيرة، كان رحّالًا طوّافا بين البلدان، كان متألِّهًا ناسكًا يعالج المرضى بالحسبة، سكن مدينة قو (حمص بسوريا حاليًا)؛ أي: في دولة أردشير، توفيّ (357ق.م) (ابن جلجل، 1955: 16).

- **التعليق 03**: جالينوس، الحكيم، الفيلسوف، الطبيعي، اليوناني، من أهل مدينة "فرغاموس"، يوناني، إمام الأطبّاء في عصره، ورئيس الطبيعيّين في وقته، مؤلّف الكتب في الطبّ، وعلم الطبيعة، وعلم البرهان، و هو بعد المسيح بنحو مائتي سنة، وبعد أبقراط بنحو ستّمائة سنة...كان في دولة نيرون قيصر، هو السادس من القياصرة الذين ملكوا رومية، وتنقّل إلى مدينة رومية مرتين، وغزا مع ملكها لتدبير الجرحى، وبرع في الطبّ والفلسفة، والعلوم الرياضية، وهو ابن سبع عشرة سنة، وأوفى وهو ابن أربع وعشرين

سنة، جددّ من علّم أبقراط، وشرح كتبه، وكانت له بمدينة رومية مجالس مقامية، خطب فيها، وأظهر من علمه بالتشريح ما عُرِف به فضله، وكان أبوه مسّاحًا، جالينوس (131قم/ ت210ق م)(القفطي،2005: 99).

- **التعليق 04**:ديسِقْليدروس: هو من أهل زربة، شامّي يوناني كان بعد أبقراط، وترجم عدّة كتب. أعلم من تكلّم في أصل علاج الطبّ.(ابن جلجل، 1955: 25).

- **التعليق 05**:بُولس حكيم يوناني طبيعي قديم العهد مشهور الذكر، نُقل عنه الطبّ، إلّا أنّ صناعة الطبّ في عهده لم تكن محقّقة، فكان ضعيف النظر، وقد نقده أرسطو طاليس وجالينوس بحُجّج وبراهين. (القفطي، 1326ه) :67).(ابن جلجل، 1955: 34).

-**التعليق 07**: أَسْقلبيوس، بالعربي، منْع اليَبَس، وقيل: أنّ أصل هذا الاسم لسان اليونانيّين، مشتق من البهاء والنور، وكان ذكي الطبع، قوي الفهم، حريصًا، مجتهدًا في علم صناعة الطبّ، وانكشفت له أمور عجيبة من أحوال العلاج بإلهام من الله، وقيل: أنّه بن زيوس، مولده روحاني، إمام الطبّ، وأبو أكثر الفلاسفة، وإقليدس، ينسب إليه، وأفلاطون، وأرطوطاليس، وأبقراط هو السادس عشر من أولاده(ابن أبي أصيبعة: 30).

7- أرسطو طاليس، فيلسوف الروم(384ق.م . 323ق.م) ببلد مجذونيا(مقدونيا)، عالمها وجهبذها وخطيبها وطبيبها، له أشعار وكتب منها: السماع الطبيعي، الكون العام الحيوان والنبات.(ابن جلجل، 1955 : 2).

قائمة المصادروالمراجع:

1. ابن أبي أصيبعة موفّق الدين أبو العبّاس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي، (دس). عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق، الدكتور نزار رضا، (دط). لبنان.بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.
2. ابن الجزّار أبوجعفر أحمد، (2009م).كتاب طبّ الفقراء والمساكين، تحقيق الأستاذين الراضي الجازي، وفاروق عمَر العَسْلي، طبعة خاصة بمناسبة احتفالات القيروان عاصمة للثقافة الإسلاميّة، ط1. تونس: المجمع التونسي للعلوم والآداب في الفنون-بيت الحكمة: مطبعة المغرب للنشر.

3. ابن جلجل أبوداود سليمان بن حيان الأندلسي، (1403هـ/1985م). طبقات الأطباء والحكماء، ط2، تحقيق، فؤاد السيّد. بيروت.لبنان: مؤسّسة الرسالة.
4. أ.د أبوجيلة(عامر جاد الله)، (2019م). "الحياة العلميّة والثقافيّة في القيروان في القرون الثلاثة الأولى للهجرة"، مجلّة المؤرّخ العربي، جامعة مؤتة، الأردن، ج2، العدد27، 2019م، (ص ص 15- 72).
5. ابن خلّكان أبو العبّاس شمس الدين، أحمد بن محمّد بن أبي بكر 608هـ/681هـ، (1414هـ/1994م). وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان، ط1، حقّقه الدكتور، إحسان عبّاس، بيروت، لبنان: دار صادر.
6. ابن خلدون، (1409ه/1989م). المقدّمة، ط7. بيروت، لبنان: دار القلم، بيروت، لبنان.
7. الذهبي(الإمام شمس الدين، محمّد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت 748ه/1374م)،(1417ه/1996م). سيّر أعلام النبلاء، أشرف على تحقيق الكتاب وخرّج أحاديثه، شعيب الأرناؤوط، م12، م15، م17 ، حقّق هذا الجزء، محمّد نعيم العرقسوسي، مأمون صافرح، بيروت، لبنان: مؤسّسة الرسالة، حقّق هذا الجزء، محمّد نعيم العرقسوسي، مأمون صافر.
8. الرازي أبو بكر محمد بن زكريا، (دس)، سرّ صناعة الطبّ، دراسة وتحقيق الدكتور خالد حربي، دط. الإسكندريّة: دار الثقافة العلميّة، سلسلة تراثنا الفعّال.
9. الرازي أبوبكر محمّد بن زكريا، (1397ه/1977م). أخلاق الطبيب رسالة أبي بكر محمّد بن زكريا الرازي إلى أحد تلاميذه، تقديم وتحقيق الدكتور عبد اللطيف محمد العبد، ط1. القاهرة، مصر: مكتبة دار التراث.
10. الأستاذ الدكتور رامي الضلّلي، تاريخ الطبّ وآدابه، (دس). جامعة الشام الخاصة، كليّة الطبّ البشري، الجمهوريّة العربيّة السوريّة، (د ت).
11. أ.م.د سادسة حلاوي: (دس). ابن الجزّار طبيبًا ومؤرّخًا(293-373ه/906-948م)، مجلّة كلّيّة التربيّة، جامعة واسط، العدد7 .
12. الشهرستاني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، (2008م). الملّل والنحل، قدّم له وعلّق حواشيه الدكتور صلاح الدين الهواري. لبنان، بيروت: دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر.

13. الصفَدي صلاح الدين خليل بن أيبك ت764هـ، (1420هـ-2000م). كتاب الوافي بالوفيات، طالعه يحي بن حجي الشافعي ابن أيبك الصفَدي-رحمه الله- أحمد بن مسعود، تحقيق واعتناء أحمد الأرناؤوط-تركي مصطفى، بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع.
14. بن صاعد الأندلسي القاضي أبوالقاسم صاعد بن أحمد ت462هـ/1069-1070م، (1912م).كتاب طبقات الأمّم، نشره وذيّله بالحواشي وأردفه بالروايات والفهارس الأب لويس شيخو اليسوعي، نشر بتتابع في السنة الرابع عشرة من مجلّة المشرق، دط. بيروت، لبنان: المطبعة الكاثوليكيّة للآباء اليسوعيّين.
15. القفطي الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي ت646هـ، (2005م). إخبار العلماء بأخبار الحكماء، علّق عليه ووضع حواشيه إبراهيم شمس الدين. ط1. بيروت، لبنان: دار الكتب العلميّة.
16. ياقوت الحموي الرومي،(1993م). معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، ج1، ط1. بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.

17-D lucien leclerc ;Histoire de la medecine ; expose complet des traductions du grec les sciences en orientaleur transmission a l occident par les traducteurs latins ; tome premier ; parix ; ernest leroux ;editeur librair uks societes asiatique dk paris ;uk calctta(chink) ;de l ecole des langues orientales vivantes ; ect ;28 ; eur bonaparte ;28187

Histoire de la